التقابل وبلاغة الخطاب في رسالة المعاش والمعاد للجاحظ

د.علي عبد الإمام مهلهل الأسدي
كلية الآداب / جامعة ذي قار

المقدمة

الإنسان كائن معقد التركيب ، يعجّ بتقابلات لا متناهية ، مرئية ومتوارية ، مدركة ولا مدركة ، على مستوى البنية الفيزيولوجية ، والذهنيّة ، والخطابيّة ، والسلوكية ... وقد أدرك الجاحظ هذه الحقيقة الإنسانية ، مثلما أدرك – أيضاً – أن الكون فضاء شاسع من التقابلات الظاهرة والخفية ، فعمل عبر خطاب رسالته الاقناعي الوعظي على تفكيك تقابلات الأفعال والسلوكيات والرؤى ، وتقديمها بأسلوب بلاغي مستساغ إلى المتلقي ، بقصد إفهامه ، أو التأثير فيه ، فالتقابل من العناصر البليغة التي ضمنت لرسالة المعاش والمعاد قوّة اقناعية ، وفائدة أخلاقية ، وذلك أن الفكر الإنساني عموماً لا يمكن أن يُفهم ويُدرك ويُفسر في معزل عن فكرة التقابل ، أو حوار الحدود المتقابلة أو المتباينة. وهو ما سيكشف عنه هذا البحث ، مع استحضار شرط عدّ التقابل آلية قرائية وتحليلية موسّعة ، تهدف إلى توضيح استراتيجية خطاب الرسالة ، وسبر أغوار بنيتها ، قصد الوصول إلى فهم جليّ وميسّر.

تقديم

رسالة المعاش والمعاد* للجاحظ ، نصّ لغويّ متماسك من الأبنية والعلامات ، والأفعال الكلامية، والتعالقات النصية المهضومة ، وتعدد الأصوات ، والأمثال ، وقواعد الاتساق والتماسك ، والربط الحجاجي ... يضطلع بنقل خبرة أو رؤية حياتية كونية تمثل تجربة الكاتب ونهجه الاعتزالي القائم على الحجة والبرهان والاستنباط العقلي.

وقد لمسنا انّ التقابل – الخفي والظاهر – هو النواة المؤسسة لتصورات

النص وفحوى مكنونه، بعد إخراجه من مفهوم البلاغة المعيارية القديم المرتبط بالطباق والتضاد على مستوى المفردة ، إلى مفهوم الأسلوبية الحديث ، وتوسيع مجال اشتغاله في دلالته على التواجه والتفاعل ، عن طريق عرض الأشياء والأفكار على ما يقابلها أو يماثلها أو يضادها أو يجاورها أو يتممها أو يشرحها أو يكشف عللها وأسبابها ، على وفقٍ علاماتٍ متباينة بين العناصر والمستويات المتقابلة بوصف النص كوناً لغوياً متقابلاً يعكس الخطاطات الذهنية المتقابلة للمعنى عند منتجه[١]. فالتقابل أسٌّ من أسس تماسك النص ، وآلية ناجعة لتحليل الخطاب تسمح بتحفيز الفكر البشري في الفهم والتفهيم ، والتبليغ والتأويل ؛ فيكون النص/الخطاب بذلك قادراً على التأثير والإقناع ، وهو يتجه بموضوعاته الإنسانية النبيلة ، وأفكاره الرفيعة ، بأسلوب أدبي جميل إلى المتلقي الذي يستقبله من حيث هو بناء من العلاقات اللسانية التداولية الجامعة للقضايا وحاملاتها من ألفاظ وجمل ، وفقرات ومقاطع ، ونصوص موازية ، واشتقاقات وتراكيب بلاغية سياقية.

إن الاستكشاف بالتقابل لفهم النص وبناء معناه ، يُستخرج عبر المقابلة بين احتمالات عدّة ملفوظة أو ملحوظة ، أي محاذاة المعاني بعضها ببعض ، والتقريب بينها عبر مواجهتها لإحداث تجاوب ما ، أو تفاعل معرفي أو دلالي[٢].

وقد اهتم النقد الحديث بتفعيل آلية التقابل ، وما يقوم به الباحثون في هذا المجال – وإن اختلفت الغايات والأدوات – يتفق على أهمية المرجعية التقابلية في التأسيس لبدائل منهجية تأويلية قويمة. فقد بيّن الناقد محمد مفتاح أن التقابل يوسّع من مفاهيم التناول وطرائق الاشتغال ، وذلك في كتابه (مفاهيم موسّعة لنظرية شعرية) إذ اعتمد في شقّ منه على نظريات التقابل ، فعاد في تفقده لمبادئ التقابل إلى أرسطو وحدوده المتضادة ، وشبه المتضادة ، ثم أشار إلى ما يتعلق بالمربع المنطقي. وعبر التحليل والمقايسة تتبّع تطوّر التقابل بمختلف صوره ، وهو ما جعله يخلص إلى أنّ ((العَالَم الذهني البشري الذي وضع به الإنسان تقسيمات منطقيّة رياضية انطلقت من التفكير بالمقابل ، وهو تفكير يتأسس على المفارقة من حيث انّه لا وجود لأي شيء إلاّ بمقابلة))[٣]. كما أنّه رسّخ فكرة (التشاكل التقابلي) بشكل جلي في كتابه الآخر (تحليل الخطاب الشعري ، استراتيجية التناص)[٤].

ويرى الدكتور حسين جمعة في كتابه (التقابل الجمالي في النص

القرآني ، دراسة جمالية فكرية وأسلوبية) أنَّ فكرة التقابل تحتل مكانة خاصة في أساليب القرآن الكريم ، فأسلوب التقابل يجري في القرآن العزيز في انسياب رقراق عذب ، ويتهادى في ديباجة متلاحمة الأجزاء ، سهلة المخارج ... بل أنّ جمالية التقابل في النص القرآني عزّزت مفهوم الجميل والجليل والسامي[٥].

ويُعد الدكتور محمد بازي من أبرز المهتمين بالتقابل النصّي في النقد العربي المعاصر فقد بذل مجهودات كبيرة في رصد التقابل بمختلف أنواعه ومستوياته ، ووضع جهداً مميّزاً له تحت عنوان ((نظرية التأويل التقابلي ، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب)) وأثبت بالتحليل والتطبيق أن التقابل قادر على تفكيك الخطاب على مستوى الاستراتيجيات التخاطبية ، وعلى مستوى اللغة ، والأساليب والاسناد الحجاجية الموظفة ، ومهارات التعبير ، وأدب الخطاب ...

واستناداً على هذه الدراسات وغيرها ، تبنينا بحثنا هذا ، وهو ينطلق من صميم خطاب الجاحظ ومكوّناته الدلالية. فمازال تحليل الخطاب بحاجة إلى أدوات قادرة على تبيّن وتبيين كيفيات تشكّل موضوعاته في الوعي المدرك والباني للأفكار والمعاني لدى الكتّاب والمؤلفين. ولذلك يضاف إلى الأدوات التي قدمتها نظريات تحليل الخطاب ، ما يقدمه النموذج التقابلي من مفاهيم وتصورات قادرة على فهم الخطاب على مستوى الاستراتيجيات التخاطبية ، وعلى مستوى اللغة الاقناعية أو الحجاجيّة ، ثم ما يتعلق ببنية الحوار وأنماط التحاور ، والاستشهادات الموظفة ، فضلاً عن تقابلات الرؤى والمواقف والصفات[٦].

ولابد من أن نذكر هنا أنّ رسالة (المعاش والمعاد) خطاب مرتبط بمكانة المرسل إليه ومقامه ، تتفاعل في صناعته عناصر : المعنى واللفظ ، والأسلوب المتقن ، والتوزيع المحكم ، والقصد إلى التوجيه. فالمرسل متقناً لصناعته البلاغية ، وحكمته القولية ، فضلاً عن خبرته بالحال والمآل ، لما يتسم به من دراية متولدة من المعرفة والتجربة والرحلة والاطلاع على حياة الشعوب والأمم. فالجاحظ في هذه الرسالة يقدم خلاصات ما ثقفه العقل واستشعره الوجدان – ليس للقاضي فحسب ، وإنما من خلاله إلى جميع الناس – ليرفع خطابه إلى درجة التماسك والانسجام، والتفاعل الاقناعي، فيتجاوز حدود التلقي المقتضب القريب ، إلى مستوى التداول البعيد من جيل إلى آخر ، ومن أمة إلى أخرى.

المنهج والبناء

انطلق الجاحظ في تأليفه للرسالة ، ومنذ عتبتها الرئيسة – عنوانها – من نسق تصوري لغوي خطابي جلي المعالم ، مستند على التقابل بمفهومه الشامل ، فالمعاش تعني الحياة الدنيا بمحامدها ومساوئها وتقلباتها ، والمعاد ، هي الحياة الآخرة بثوابها وعقابها ، ليعكس نمطاً من التفكير والتصوّر للحياة والكونٍ والإنسانٍ والدين والقيم والسلوك على متن الرسالة. فالعنوان يرتبط ارتباطاً عضوياً بالنص المعنون ، فيكمله ولا يختلف عنه ، ويعكسه بأمانة ودقة[٧].

ومن الملامح البارزة لسمات التقابل المركزي في النص ، طريقة التقسيم ، ومنهجيّة التأليف التي تعكس تصوراً شمولياً لخطاب الرسالة ، فنصها يسعى إلى بيان الطبائع التي رُكّب عليها الخلق ، وفطِرت عليها البرايا ، وتماثل الخلق في هذه الخصال (المحمودة/والمذمومة) ، ومن ثمّ التمييزٍ بين الحالات ، والتباين في المنازل بحسب العلل والأسباب ، وعرضها عرضاً تقابلياً ؛ لما في ذلك من علامات بيان ، وإشارات إيضاح ، وبلاغة حجاج وإقناع ، وجماليات أسلوب. قال الجاحظ في عرضه لمنهج الرسالة ومعماريتها : ((فألفت لك كتابي هذا ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي رُكّب عليها الخلق ، وفُطِرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون))[٨] ثم يقابل هذا النص الجامع لطباع الخلق وصفاتهم التي جُبلوا عليها ، بنص آخر مقابل ملتحم بالأول ومتسق به ، مستعيناً بأداة الربط (ثم) مفصلاً فيه منهج الرسالة بالإشارة إلى أمورها الجزئية ، بعد أن أجمل في سابقه القول في المبادئ العامة، فقال: ((ثمَّ مبيّن لك كيف تفترق بهم الحالات، وتفاوتٍ بهم المنازل ، وما العلل التي يوجبُ بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأوّل كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلاّ بالأوّل ، وربما كان الأوّل ولم يكنٍ الثاني. وفرّقَ مابين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً. ولِمَ اختلف ذلك؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه. وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال وحتى تُؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النفار ، وكيف يُتَأتّى ليُتقَضَ ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تصرف إلى الشيم المحمودة ؟ وراسم لك في ذلك أصولاً ومبيّن لك مع كل أصل منها علته وسببه))[٩]. قسم الجاحظ الطبائع أو المنازل والحالات

إلى أُوَل ، وإن شئنا قلنا نووية ، ومعان ثوان وهي بمثابة دلائل على الأُوَل ، وممكن أنْ نسميها استتباعية أو سببيّة أو استدلالية.. انطلاقاً من مفهوم إجرائي ونسقي ناظم ، يعتمد علاقات التقابل ، معبّراً عن ذلك بالعلل التي يستدعي بعضها بعضاً ، والأشياء التي تكون سبباً لغيرها.

فمنشأ التقابل في صناعة النص عند الجاحظ هو تطالب المعاني واستدعاؤها في الذهن بغية التكامل. فالمعنى يكمل غيره توسيعاً أو تفريعاً أو تأكيداً أو تقسيماً ، أو غير ذلك من العلاقات الحادثة بين المعاني في ذهن مُنشئها ، سواء أكان هذا التطالب أو التداعي بين المعاني الأُوَل ، أي بين معنى أساس قابل للتفريع، أم بين معان ثوان وهي المفرّعة للأُوَل، أم بين معنى أول وثان ، تبعاً لعلاقات معينة مثل التخالف أو التناقض أو التضاد أو التوافق. وهو الأمر الذي استند عليه حازم القرطاجني فيما بعد في تحليلاته البلاغية والنقدية ، ففي منهاجه نقرأ ((لكلّ معنى معانٍ تناضره ، وتنتسب إليه على جهات من المماثلة والمناسبة والمخالفة والمضادة والمشابهة والمقاسمة))[١٠].

وللتقابل – كما يستشف من كلام الجاحظ السابق – علامات وسيماء (وربّما كان الأوّل ولم يكن الثاني ...) فهو يستعرض التقابل عبر حضور أحد العناصر في مقابل عنصر آخر ، إنه تواجه شيئين ، أو وضعين ، أو حالين ، أو فكرتين ، قد يدل أحدهما على حضور الآخر وان كان غائباً ، فهو علامة وسيماء على بنية تقابلية قائمة على الحضور التام ، أو الجزئي ، وسواء حصل الحضور بين (أ) و (ب) أو حضر (أ) ، من دون (ب) ، فان ملاحظة الأحوال والظواهر من حولنا والتمعن فيها وإدراكها يقتضي حضور زوجها أو مقابلها ، إما حضوراً ماديّاً أو معنويّاً.

والفهم عند الجاحظ عقلي وروحي ، أي أنّ الحقائق المفهومة ، لابُدّ أنْ تُدرك بالعقل والتأمّل ، وتُستشعر بالروح والقلب ، أي بالتجاوب الذهني والتفاعل النفسي. ونهج الرسالة في بناء المعنى قائم على مقابلة الأشياء المطلوبة بغيرها عبر علاقة أو سبب ما ، من أجل استمالة النفوس لها ، والتواصل معها ، وهو تطبيق صريح لمبدأ السببيّة الذي آمن به الجاحظ ، فهو يربط (يواجه) المثال بمثاله ، والمعلول بعلته ، والمدلول عليه بدليله ... فيحصل الفهم والإفهام من تمثل إلى آخر مقابل.

ويبدو أن الجاحظ يعي – مما يتضح من عرضه لخطة الرسالة – حقيقة

ما يصنع ، فهو يعرض الأمور عرضاً تقابلياً لما في ذلك من إنبلاج للحقائق ، وكشف للشُبهات ، ففي بيانه لنهج الرسالة يقول : ((وقد علمت أن في كثير من الحقّ مشبّهات لا تستبانٍ إلاّ بعد النظر ، وهناك يختل الشيطان أهل الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلاً إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة. فلم أدعْ من تلك المواضع الخفيّة موضعاً إلا أقمتُ لك بإزاء كل شبهة منه دليلاً ، ومع كلِّ خفيٍ من الحق حجة ظاهرة ، تستنبط لها غوامض البرهان وتستبين بها دقائق الصواب ، وتستشف بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيّنة وتدع ما تدعُ عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عُرفت العلل والأسباب ، حتى كأنك مشاهد لضمير كلّ امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما رُكّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثمّ ؛ غير راضٍ لك بالأصول حتى اتقصى لك ما بلغه علمي من الفروع))[11]. فالمعاني الظاهرة قريبة البيان والتبيين تستبان بمثيلاتها الظاهرة ، أو تطلب معاني أخرى باطنية ، تتضح على ضوئها ، وتتوسع من خلالها ، فالشاهد من حالات الجسد – مثلاً – يدلّ على الغائب من حالات النفس ، والمكشوف على المستور ، والمحسوس على المعقول ، أما المعاني الخفية المستترة فهي على حد تصوير الجاحظ سراديب مظلمة ، يختل فيها الشيطان – وأحسبه يعني شيطان الفكر واللغة – فينصب فخاخه المراوغة ، ليصطاد الغفلة من محللي الخطاب ونقده وتأويله. وقد حظيت هذه المعاني الخفية (الحقائق/والشبهات) على الاهتمام البالغ عند الجاحظ، إذ عَمِلَ جاهداً على إنارة دهاليزها بمعان مقابلة مضيئة ، متمثلة بالأدلة الدامغة ، والحجج الظاهرة ، فالمعاني تكشف فخاخ مقابلاتها وتكملها وتزيدها وضوحاً وبياناً.

لقد كان الجاحظ – وكما هو بائن في نهجه – ملمّاً بخفايا التأليف ، محسناً الارتياد لموضعٍ البغية ، يُبين أسباب الأمور ويُمهد لعواقبها ، مدركاً لجوانب القصور ، عارفاً باستعصاء بعض القضايا على الأفهام ، لذلك سعى إلى إثبات الحقائق بالتبحر والاستقصاء والاستكشاف ، غير أنه استدلال يتخذ طابعاً تقابلياً مستخلصاً من ملاحظات دقيقة لبنية الخطاب في أغلب الأحيان ، وهو – بالطبع – لا يصرّح بذلك ، لكنَّ القارئ المتمعن يُدرك أنّ وراء هذا الخطاب المثير الجذاب سرّاً ما ، أو أداة ما لإيصال المعاني والأفكار ، وما هي في حقيقة الأمر إلاّ مقابلتها ببعضها ((فقد كان الجاحظ مشغوفاً بالمقابلة في معانيه وأفكاره شغفاً

شديداً))[١٢] وغدا التقابل بكلِّ أدواته منهجاً من مناهج البحث عند الجاحظ، والمطلع على مؤلفاته الأخر يجد أنّه على وعي به، على الرغم من أنّه لم يتناوله تناولاً نظرياً ، لكنه من الناحية التطبيقية وظفه توظيفاً ملحوظاً ، ينم عن مدى إدراكه لفاعليته في إبراز المعنى ، إذ يجد المتصفّح لمؤلفاته ، أنّ أكثر فصولها وأبوابها وعناوينها تضمّ أموراً متضادة. فكتاب الحيوان – مثلاً – مفعم بهذه الأبواب التي تتناول الشيء وضده ، مثل باب (عين الرضا وعين السخط)[١٣] وباب (الخصب والجدب)[١٤] وباب (نفع العصافير وضررها)[١٥]. وفي بعض الأحيان يفرد للأمرين المتقابلين بابين يستقل أحدهما عن الآخر ، مثلما فعل في باب (ما قيل في البرد)[١٦] ثم يعقبه بذكر (ما قالوا في صفة الحر)[١٧].

وهكذا في رسائله نطالع (رسالة المعاش والمعاد) ، ورسالة (مفاخرة الجواري والغلمان)[١٨] ورسالة (فخر السودان على البيضان)[١٩] ورسالة (الجد والهزل)[٢٠]. ويتضح منهج التقابل عند الجاحظ بشكل جلي وفاعل في كتابه (المحاسن والأضداد). وهو كما يبدو من عنوانه يحرص على بيان محاسن الأشياء ومنافعها، وما قيل في مساوئها ومضارها. وقد ترسّخ نهج الجاحظ هذا حتى صار وسيلة لإيضاح الأفكار وبيان المعاني، ليس للجاحظ فحسب، بل لمن جاء بعده من المؤلفين والكتّاب.

تقابل الذوات

نسعى هنا إلى تبيان التقابل في نص الرسالة على مستوى الأطراف المتخاطبة (الذوات) ، ومقامات المتخاطبين، وردود أفعالهم، ونهدف من تناول هذا المستوى التخاطبي التحقق من الملمح البنيوي التقابلي القوي في التواصل ، وفي بلاغة التخاطب.

يتّخذ الفكر عند الجاحظ دلالة المغامرة والكشف ، وفتح مغالق لم يسبق لمفاتيح نظرائه من ذوي الفِكر والأدب أن كشفت عن مكنونها، وحددت ماهيتها ، فالجاحظ فكّر في ما لم يُفَكّر فيه، فقد كان يبحث عن ذاته ، ويمحّص النظر في ذوات الآخرين ، ليحدد موقعه الفكري بين نظرائه المجايلين والسابقين. وما هذا التقابل سوى دليل نحو تأسيس هوية مختلفة ، ومباشرة كتابة مميّزة تُعبّر عن خصوصية الذات الجاحظية وتميّزها ، مقارنة بالذوات الأُخر المشتغلة على البغية نفسها.

ويتبلور هذا التقابل في خطاب الرسالة عبر تواجه بين الذوات معبّرٌ عنه

بالأسماء أو مُحال عليه بالضمائر ، ويُدرك بالوقوف على أحوال الذوات المذكورة ، بما يُظهر العلاقات المتقابلة بينها. ففي تقريظه للقاضي يقول : ((وإنّي عرفتك – أكرمك الله – في أيام الحداثة ، وحيث سلطان اللهو المُخلق للأعراض أغلبُ على نظرائك ، وسكرُ الشباب ، والجِدة المُتحيِّفين للدين والمروءة مستولٍ على لداتك فاختبُرت أنتَ وهم ففقتهم ببسطة المقدرة وحُميَّا الحداثة ، وطول الجِدة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة ، والجمال في الهيئة. وهذه كلّها أسبابٌ تكاد أن توجب الانقياد للهوى ، ولُججٌ من المهالك لا يسلم منها إلاّ المنقطع القرين في صحة الفطرة ، وكمال العقل))[٢١].

يتوجه الجاحظ بخطابه نحو القاضي ، (وإني عرفتك – أكرمك الله –)) ليعقد مقارنات سلوكية أخلاقية جمالية بين القاضي وبين نظرائه (لداته) وهي تقابلات جدلية مؤسسة لمعنى الخطاب ، لا ينبغي إلغاؤها والسكوت عنها ، فعلاقة القاضي (الذات) بأقرانه (الذوات الأُخر) هي ثنائية قائمة في طبيعة الحياة ، يُعدّ كل طرف منها شرطاً لوجود الطرف الآخر وفهْمِه والاعتراف به. كما يرى أن العلاقة التخاطبية بين الذوات تقوم على قاعدة التمايز والتفاضل ، إذ لا يمكن فهم الذات وتنويرها من دون مقابلتها بنظيراتها عبر علاقة شرطية وجدلية ، حيث يصبح الآخر عند الجاحظ شرطاً لكشف الذات على قاعدة (الغالب/والمغلوب) أو (الخاسر/والرابح) ، وسرُّ هذه الغلبة والتفوق – كما يرى الجاحظ – أن القاضي حكّم وكيل الله (العقل) على (الهوى) وألقى إليه أزمّة أمره ، فسلك به طريق السلامة وأسلمه إلى العاقبة المحمودة ، أما نظراؤه فقد اتّبعوا هوى النفس فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمّة أديانهم وسلّطوها على مروءاتهم ، وأباحوها أعراضهم ، فآلت بأكثرهم الحال إلى ذل العدم ، وفقد عزّ الغنى في العاجل ، والندامة الطويلة والحسرة في الآجل[٢٢].

ثم يسوق الجاحظ جملة تقابلات استتباعية متفرعة عن التقابل المحوري (العقل/الهوى) ترفد المعنى وتوسع مجال اشتغاله ، فيقول وهو يشيد بعقل القاضي ، ويغضُّ من هوى نظرائه ، وأداته البليغة لبلوغ مسعاه ، والظفر بمرامه هو التقابل القائم على التفاضل ((وبلغ بك – أي العقل – من نيل اللذات أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر ما نالوا ، وصرّفك من صنوف النِعَم أكثر مما تصرّفوا ، وربط عليك من نعم الله التي خوّلك ما أطلقه من أيديهم

إيثار اللهو وتسليطهم الهوى على أنفسهم ؛ فخاض بهم سُبُل تلك اللجَج ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين ، وافر المروءة ، نقيّ العرض ، كثير الثراء ، بيّن الجدَة. وذلك سبيل من كان ميلهُ إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه))[٢٣].

هذا التفكير المبني على التقابل يحضر في النقد الأخلاقي والسلوكي والكوني عند الجاحظ ، ويُعرض بشفافية ، ومن دون حمولة نظرية ثقيلة ، إذ إن جدل الحياة والمعرفة والدين ينتجُ وعياً بالذوات ، ولا يستقيم هذا الوعي إذا اكتفى بالذات من دون مواجهتها بالذوات الأُخر ، وتلمّس تركيبها ومواصفاتها وماهيتها. فالجاحظ قابل بين طبيعة الذات العقلانية ، وطبيعة وسلوك الذات الهوائية ، ففي العقلانية يكون العقل مالكاً ، والقلب صقيلاً بنور الطاعات والعبادات ، أما عند الذات الهوائية فيكون العقل مملوكاً ، والقلب مرآة يعلوها صدأ المعاصي والشهوات.

وإذا كانت الذات العقلانية – كما يصرح بها في خطاب الرسالة – سليمة الدين، وافرة المروءة، نقيّة العرض ، كثيرة الثراء ، بيّنة الجِدة ، فإن الذات الهوائية أو الشهوانية المقابلة المتبلورة في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى ، معلولة الدين ، منقوصة المروءة ، مدنسة العرض ، مسفوتة الثراء ، مقبوضة الجِدة ، وهي نتيجة حتمية للذات اللاهية يكشف عنها سياق الخطاب ، وإن لم يصرح بها علانية ، وهو ما يسمى بالبلاغة العربية القديمة (بالإكتفاء) ، إذ يحذف بعض الكلام لدلالة الباقي على الذاهب[٢٤]. وهو ضرب من الإيجاز البليغ يُفيد عندما ((يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة ، ولا يكون المكتفى عنه إلاّ آخراً لدلالة الأول عليه))[٢٥].

لقد وظّف الجاحظ تقابل الذوات خدمة لتواصل الخطاب ومقصديّته ، ففي النّص الآتي يجري التقابل بين الجاحظ (المرسِل)/والقاضي (المرسل إليه) – بعد أن كان تقابل الذوات بين القاضي ونظرائه – ولكن هنا جاء بنبرة استعطافية تضرّعيّة تراعي مقتضى الحال ، ومقام المُخاطب ووضعه الاعتباري[٢٦]. وذلك مما ينبغي الانتباه إليه لدى أي متكلم يطمح إلى بلاغة الخطاب ، يقول في رسالته : ((فلم أزل – أبقاك الله – في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة

فتدعوني إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبةً في الاتصال بك ، ارتياداً مني لموضع الخِيَرة في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودّة ، وتخيراً لمستودع الرجاء في النائبة))[٢٧]. ويستمر هذا التقابل بين الذات الناصحة ، والذات المنصوحة على طول الرسالة ، فهو أشبه بالعمود الفقري للنص ، ومن بين المكوّنات المهمة لاتساقه ومنحه بُعداً شمولياً يتجاوز العلاقات الظاهرة إلى العلاقات الباطنة ، فهو يحقق الترابط المطلوب في النص أو الخطاب.

ومن اللافت للنظر أنّ مسوّق الخطاب – الجاحظ – قام باستعدادات بليغة ليبرّز صورة مقنعة وملفتة لذاته بين الذوات، بعد أن خلق - وبشكل متقابل مواز - صورة مهمشة أو ثانوية عن الآخر المنافس له، ليؤكد ذاتيته ، ويلمّح إلى ألمعيته وفطنته وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها ، فراح يرسم لنفسه سلوكاً حسناً وشفافاً ؛ ليجعل من ذاته محوراً مهماً ومتميّزاً في صلب الخطاب ، لينفرد بالتفوّق والغلبة ((فمن طبع المتفوّق أن يحافظ على تفوّقه وتقدمه المادي والفكري ، ومن طبعه أيضاً أن يتمركز لتحوم حوله الهوامش الثقافية على سبيل الإذعان والإعتراف بالشوكة والعظمة ، وأن يبسط سيطرته على جميع الأطراف التي يتحكم فيها أو يصبو إلى امتلاكها))[٢٨]. ويبدو هذا السلوك جليّاً في نص الجاحظ ، إذ يقرن ذاته العالمة بالآخر المقابل له على مستوى الفكر والاستنباط والبرهان ، ليخلق لنا تقابلاً جديداً على مستوى الذوات ، بينه وبين نظرائه ، فقال : ((رأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عَهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقَّ وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاّ أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعاً لم يبيّنوا عللها ، وصفاتٍ حسنة لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها. فان كان ما فعلوا من ذلك روايات رَووها عن أسلافهم ، ووراثاتٍ ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة مَن استنبط وإن كانوا تركوا الدلالة على علل الأمور التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يعْدُو في ذلك منزلة الظن بها))[٢٩]. فنظراء الجاحظ من ذوي الفكر والأدب قاربوا الحقيقة وحاموا حولها ، في حين هو بلغها وغاص في أعماقها ، وهم رسموا فروعاً لم يبيّنوا عللها ، وصفات لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً لم يدلّوا على أصولها ، وقد اكتفوا بتبليغ الأمانة عن الغابرين ، ولم يَعْدُوا منزلة الظن في الوصول إلى اليقين ، ولم يحققوا غاية الاستبصار. في حين

نظيرهم المقابل – الجاحظ – فاق نظراءه في كل ما ذكر، فبلغ فضيلة الاستنباط والحجة والبرهان، وتوغل في علل الأمور وأسبابها، ووصل إلى اليقين فيها، فهو واصف للطبائع التي رُكّب عليها الخلق، ومبيّن كيف تفترق بهم الحالات، وتتفاوت بهم المنازل، وعارف بالأشياء التي تكون سبباً لغيرها، كما أنّه عالم بدواعي قلوب الناس، وأسباب نزوع شهواتهم، وما الأشياء التي تحتال لقلبوهم حتى تُستمال، وتؤنس بعد الوحشة، وكيف يُتأتى لينقض ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرف إلى الشيم المحمودة، وراسم في ذلك أصولاً، ومبين مع كل أصل منها علته وسببه[٣٠].

والمتمعن في خطاب الرسالة يجد أنَّ تقابل الذوات يشتغل بشكل تساندي، ويدفع نحو مقصد مركزي ، وهو تغيير وضع الإنسان من أجل بلوغ الخير الأقصى، وتحقيق العدل الشامل، وتبصيره بأحوال نفسه، ونفوس الآخرين. فالرسالة تقدم توجهاً حقيقياً في التعامل مع جوهر الحياة ولبّها، وتتجه إلى تفعيل التقابل بين الذوات لخلق علاقات وجدانية سلوكية جادة وعميقة لدى المتلقي المباشر لخطاب الرسالة (القاضي) مع الرعية ، أو لدى المتلقين المفترضين مع بعضهم. وهكذا يعود بنا الجاحظ ليضعنا أمام تقابل آخر من تقابل الذوات ، بل درسٍ آخر من دروس الحياة ، طرفاه هذه المرّة (القاضي/وأعوانه) ، فيقول ناصحاً ((لتكن أمورك معهم (الأعوان) على قدر البلاء والاستحقاق، ولا تُؤثر في ذلك أحداً لهوىً ؛ فإن الأثَرة على الهوى توجب السُخطة، وتوجب استصغار عظيم النعمة، ويُمحَق بها الإفضال، وتفسد عليها الطائفتان : مَن آثرتَ ومَن آثرت عليه))[٣١]. ثم يبيّن علة فساد مَن فضّله لهوىً ، ومَن لم يفضله للسبب ذاته ، فيقول: ((أما مَن آثرتَ فإنه يعلم أنّك لم تؤثره باستحقاق بل لهوىً ، فهو مترقبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحُول أثرتك حيث مال هواك. فهو مدخول القلب في مودّتك غير آمن لتغيّرك. وأما مَن آثرت عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلت له السبيل إلى الطعن عليك ، وأعطيته الحجة على نفسك فكل مَن يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النفعَ ضرراً ، والإصلاح فيه فساداً))[٣٢].

ويعرض الجاحظ بشيء من التفصيل والتبيين للعلاقة المتوخاة بين القاضي أو صاحب السلطة، وبين أعوانه، فربما آثر رجل القرار المرءَ من أتباعه بالعطية السنية على بلاء أبلاه، فيعظم قدرها عنده، حتى لعله تطيب نفسه ببذل ماله ودمه من دونه. فإن أعطى مَن أبلى كبلائه، وكانت له مثل دالته

(وهذه مقابلة بين الذوات – الأعوان –) أكثر مما أعطاه ، انتقل كل محمود من ذلك مذموماً ، وكل مستحسن/مستقبح. وكذلك الأمر في العقوبة ، يجريان مجرى واحداً[٣٣].

ويهتم الجاحظ بالسلوك السوي الواجب اتباعه بين الأطراف المتقابلة ، فعلى القاضي معرفة طرائق أعوانه وشيمهم وتجاربهم ، فهم شركاؤه في صنع القرار ، صلاحهم موصول بصلاحه، وعطبهم كائن مع عطبه ، ولا ينسى أن يحذره من الذين يغلبهم إفراط الطمع وحُميّا الشره، واستغلال لين الجانب ، واستصغار المعروف، ومَن يطلب اللحوق بمنازل مَن ليس هو بمثله، ولا له مثل دلالته ، فينصحه بمداواتهم بالدواء الذي هو أنجع فيهم ، إن لينا فلينا ، وان شدّة فشدّة[٣٤].

وكان الجاحظ متحمساً لفكرة تلاقح عقول الذوات ، والإفادة من خبراتها المتنوعة ، وهي فكرة لامعة في خطابه ، وحجر الزاوية في فكره ، ونتلمس في رسالته هذه دعوة صريحة ، وأخرى ضمنية إلى فكر قوامه المشاركة مع الآخر المقابل ، بل أنه يرى ضرورة مهادنة الآخر العدو ، وترويضه بالعقل ، واستصلاحه بالحلم والأناة ، فقال موصياً : ((واعلم أن أصل ما أنت مستظهرٌ به على عدوّك ثلاث خلال: أشرفها: أنْ تأخذ عليه بالفضل وتبتدئَه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة، ولنفسك ناظراً ؛ فان كثرة الأعداء تنغيصٌ للسرور ... والإكثار من الوعيد للأعداء فشل ، ولكن داج عدوّك ما داجاك ، وأحصي معايبه ما لاحاك))[٣٥]. ومن خلال خطابه كان يرى أنّ نجعل مكاناً للآخر ، والبحث عنه ، وتذليل المصاعب والعوائق التي تحول دون التواصل معه ، والانفتاح على فضائه الفكري والمعرفي والمهني ، فقال مخاطباً القاضي: ((واعلم أنّك ستصحب من الناس أجناساً متفرقة حالاتهم ، متفاوتة منازلهم ، وكلّهم بك إليه حاجة ، وكل طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك ، فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة ، ومنهم من تريده للشدّة والغلظة ، ومنهم مَن تريده للمهنة. وكلّ يسدّ مسدّه على حياله))[٣٦] ومن الملاحظ أنّ الجاحظ في بحثه عن الآخر المقابل، يلغي الميول العرقية والدينية المفروضة ، وكذلك النزوات القهرية والوصايا القصرية التي تهدف إلى الهيمنة والسيطرة.

فعلى الذوات المتقابلة أن تعترف بحق الاختلاف والتعايش ، لأن القيمة

المستحبة التي يوصي بها الجاحظ القاضي هي العدالة وحقوق الإنسان ، فإذا لم يستجب لهذا المقصد الخلقي فان العلاقة ستتحول إلى هيمنة وإقصاء ونبذ.

وما انفك الجاحظ يرسم مساراً بيّناً قائماً على العلاقات المتقابلة لذوي السياسة في تعاملهم مع أتباعهم من الذوات المختلفة أقدارهم ومراتبهم ، ويوصيهم في المداراة ، مع الأخذ بنظر الاعتبار إمكانية الآخر وكفاءته واختصاصه ، فيقول : ((ولا تخْلينّ أحداً منهم – عظمُ قدره أو صغرت منزلته – من عنايتك وتعهدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أنهم منك بمرأى ومسمع. ثم لا تجوزَنّ بأحد منهم حدّه، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقم لك حاله ، ويتسق لك أمره))[٣٧].

وللأخلاء نصيب وافر من عناية الجاحظ ، إذ يضعهم وجهاً لوجه متقابلين مع القاضي ، ومن خلاله المتلقي بصورة عامة ، فقد ألزم القاضي بسيماء صديقه ، وقرنه وسلوكه ، وألصق به أفاعيله، إنْ خيرٌ فخير ، وإنْ شرٌ فشر. مستعيناً بمقابلة الذوات وبيان صفاتها ، فيقول : ((واعلم أنك موسوم بسيما مَن قارنت ، ومنسوب اليك أفاعيل مَن صاحبت. فتحرَّزْ من دخلاء السوء ، ومجالسة أهل الريَب ، وقد جرت لك في ذلك الأمثال ، وسُطرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا: المرء حيث يجعل نفسه ، وقالوا : يُظنّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه ، وقالوا : المرء بشكله ، والمرء بأليفه))[٣٨].

ولابد أن نذكّر أن هدفنا من هذا التحليل هو كشف البنيات الدلالية المتقابلة (وهنا الذوات) التي يتأسس عليها خطاب النص في أثناء صياغته ، أي إدراك الأشياء بمقابلاتها ، وليس القصد بالتقابل دوماً التضاد – وهو الأمر الذي أشرنا إليه في تقديم البحث – بل التماثل والتناظر والتشابه – كما في المثال أعلاه – وكذا التقابل تبعاً للعلاقات الممكنة بين العوالم والحالات والوضعيات والقيم والأفعال.

وتحضر ذوات عدة في ذهن الكاتب بشكل تقابلي ، علّها تحقق أُلفةً مبحوثاً عنها ، أنساماً، إشراقاً ، ميلاداً ، تباشير حياة ، فالخلُّ المختَبر هو قرين ذاتك وظلّها يقف قبالتها في السرّاء والضراء ((وهو شقيق روحك ، وباب الروح إلى حياتك ، ومستمد رأيك وتوأم عقلك. ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة. ولابدّ من المؤانسة))[٣٩].

ويحثّ الجاحظ على تجريب الصديق وتمحيصه ، فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة ، وحالات الضرورة ، فنافسْ فيه ، واجعله نصب عينيك ، ومَن كفر بالنعمة ، وغدر بالشدّة ، فاحذره أشد الحذر ((فإنّ مَن شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومَن طبيعته الغدر لا يفي لأحد ، وإنما يميل مع الرجحان : يذلُّ عند الحاجة ، ويشمخ مع الاستغناء))[٤٠] .

ويسهب الجاحظ في تقسيم الذوات وتقابلاتها ، فعلى سبيل المثال يحدد علاقة القاضي بمن دونه ، ومَن بدرجته ، وبمن أعلى منه ، وهو تقابل ثلاثي الأبعاد ، فيقول : ((واستظهر على مَن دونك بالتفضل ، وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال. تأخذ بوثائق الأمور ، وأزمّة التدبير))[٤١] وكذلك يرسم له خطوطاً تقابلية واضحة في التعامل مع مَن حطته الدنيا وأذله الدهر ، ومع الآخر الذي رفعته الدنيا ، وزهى به السلطان وخيلاؤه ، فيقول : ((أوصيك بخلق قلَّ مَن رأيته يتخلق به ... ألاّ يُحدثَ لك انحطاط مَن حطتْ الدنيا من اخوانك استهانة به، ولا لِحقه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرته قليلاً كان أشرفٍ لك ، وأعطف للقلوب عليك. ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعتْ الدنيا منهم تذللاً وإيثاراً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحُك أكثر من ذامّك))[٤٢] .

ولا ينسى أنْ يحذره من الذات الخادعة المراوغة ، فيضعه – مثلاً – وجهاً لوجه قبالة المداحين المتزلفين ، فيقول مخاطباً : ((فأما ثناء المادحين لك في وجهك ، فانما تلك أسواق أقاموها للأرباح ، وساهلوك في المبايعة ... أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثبّطون عن ابتناء المعالي))[٤٣] وكأنه أراد أن يشير – ومنذ قرون – إلى ما شخّصه النقد الثقافي الحديث عن الرياء المتبطن المديح المصلحي التكسبي[٤٤] . وهكذا يمكن القول : إن تقابل الذوات موجّه فعّال في خطاب الرسالة ، وعلى ضوئه سارت قصدية العمل الرامية إلى تقويم النفس البشرية ، وكشف صراعاتها وأهوائها وسلوكها ، إذ يعد هذا التقابل تقابلاً مركزياً أو نووّياً – والتقابلات الموضوعية الأخر تقابلات تتميمية أو استدلالية أو توسعية – يسهم في بيان تحلية النفس وتخليتها. تحليتها بالأخلاق المحمودة/وتخليتها من الأخلاق المذمومة. وكل ذلك وراؤه فكر تقابلي بنّاء ، وبنيوي عميق يتمثل في عقل الجاحظ المفكر ، والمنتج ، والمتواصل عبر اللغة وإمكاناتها الفنية البلاغية.

تقابل الصفات (المحمودة/المذمومة) :

يُعد تقابل الصفات ، أو الأخلاق (المحمودة/المذمومة) من العناصر البليغة التي ضمنت لرسالة الجاحظ قوّة حجاجية واقناعية ، وفائدة أخلاقية ، ولعلّ ما يشدّ القارئ لخطابه هو تصور الأخلاق والطباع بهذا الشكل المتقابل ، وهو دليل على إدراك وتمثل حقيقي لصفات الإنسان وسلوكه ، فهو يحلل ميول الإنسان إما إلى الخير أو إلى الشر تحليلاً تقابلياً تسعفه سعة الاطلاع على علوم المنطق ، وعلم الكلام ، وفنون القول والبلاغة.

وبما أن التقابل أساس الحياة وعصبها ، فقد بنى الجاحظ عليه الخطاب ، وتوسل به في الإنتاج وصناعة المعنى، وقديماً قال ابن سيدة: ((ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصناعة))[٤٥] غير أن التقابل على وفق النقد الحديث ، يتجاوز النقيض وحده ، ليسع أنماطاً أخر مثل : التراتب أو التحاذي أو التوازي أو الترادف أو التخالف وغير ذلك من الإمكانيات التي ينبني عليها الخطاب[٤٦].

والجاحظ في رسالته يوصي بحفظ الطباع والصفات التي يوجب بعضها بعضا ، وقد ضمنت اوائلها كون اواخرها ، ومتى كان الأوّل منها وجب ما بعده ، وحذّر من الصفات التي يعقبها المكروه ، وحرص على توطيد الأمور التي على إثرها السلامة ، وحثّ على إلقاح الأمور التي نتاجها العافية ، وهو يسير على هذا المنوال الارشادي القائم على التصوّر التقابلي للصفات والأخلاق ، حيث ترتبط الأشياء فيما بينها ارتباطاً سببيّاً ((فمن الأمور التي يوجب بعضها بعضاً : المنفعة توجب المحبة ، والمضرّة توجب البغضاء ، والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستثقال ، ومتابعته توجب الأُلفة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب يورث التهمة ، والأمانة توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المودّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبر يوجب المقت (البغض) ، والتواضع يوجب المِقة (المحبة) ، والجود بالقصد يوجب الحمد ، والبخل يوجب المذمّة ، والتواني يوجب التضييع ، والجد يوجب رخاء الأعمال ، والهوينا تورث الحسرة ، والحزم يورث السرور ، والتغرير يورث الندامة ، والحذر يوجب العذر ، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانة توجب التباغي ، والتباغي مقدمة الشر وسبب البوار))[٤٧].

وعند فرز الصفات نحصل على مجموعتين رئيستين متقابلتين متضادتين

، هما مجموعة الصفات المحمودة ، ومجموعة الصفات المذمومة. وكل مجموعة من المجموعتين تتألف من ثنائيات ضديّة ، أو ثنائيات تكاملية ، أو تتميمية ، أو سببيّة ... وقد ظلت المعاني – في النص السابق – تتوالد في خَلَد الجاحظ على وفق تقابلات بنائية تثوي ورائها دلالات كثيرة لتفصح عن صفات مستنبطة متقابلة جديدة ومشتقة من التقابلات الأُول ، إذ إنّ لكل منها إفراط وتقصير ، وإنما تصح نتائج التقابلات إذا أقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخلها من الخلل – من زيادة أو نقص – يظهر فيما يتولد منها، وتمام المنفعة بها ، إصابة مواضعها: ((فالإفراط في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يوجب المذّلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو خلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النصيحة. وآفة الأمانة إئتمان الخانة ، وآفة الصدق تصديق الكَذَبَة ، والإفراط في الحذر يدعو ألاّ يُوثق بأحد ؛ وذاك ما لا سبيل إليه. والإفراط في المضرّة مبعثة على حربك ، والإفراط في جرّ المنفعة غَناءٌ لمن أفرطت في نفعه عنك. واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل ، ويسلبك الحذر ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار))[٤٨].

وهكذا تحقق الصفات أو الأخلاق مع مقابلاتها وظائف متنوعة المعاني والأحوال ، من أهمها ديمومة الحياة ، وتوازنها ، فالجاحظ يضع منهجاً عقلياً صائباً في التعامل مع هذه الخصال المتقابلة في النفس البشرية ، قوامه التوازن والعدل ، والعمل على استجلاب النفع ، ودفع الضرر ، مما بيّنه في جميع ما أورده من صفات ، تحيل إلى صفات أُخر منبثقة عنها.

إنّه دقيق في إيراد المقابلات في أماكنها ، وقد اعتنى بالفواصل بأسلوبه الشيق الطريف ، فضلاً عن قدرته على التصرف بالجمل والتراكيب ، مؤكداً ضرورة وجود الشيء ومقابله في موضع واحد ، أو في ذات واحدة ، وكل ذلك حقق إيقاعاً صوتياً مثيراً ومعمِّقاً للدلالات ، نتلمس له تجليات في النصوص التي أوردناها والتي سنوردها فيما بقي من هذا البحث.

والجاحظ دقيق في اشتغاله على الصفات المتقابلة ، وحقيقة وجودها في النفس البشرية ، محيطاً بأسبابها وعواقبها ، وتباين تأثيرها ، فهو يرى أنّ الإنسان يستطيع أن يتعامل معها على نحو موضوعيّ واقعيّ صائب ، يتوخى ما

فيها من فائدة ، ويتجنب ما تحمله من ضرر ، بما أوتي من عقل وتدبير. ومما نقرأ في قوله : ((واعلم أنّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمّها أربع خلال : الكذب فإنّه جماع كلّ شرٍ ... والغضب فإنه لؤمٌ وسوء مقدرة ؛ وذاك أنّ الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس... والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ، والحسد لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام))[٤٩]. وبقدر ما ذم هذه الصفات، حمد أضدادها من الأخلاق، وزعم أنها أصل لكل كرم ، وجِماع لكل خير ، وبها تنال جسام الأمور في الدنيا والآخرة. فذكر الصدق مقابلاً للكذب، وهو عنده صدقان: أعظمهما صدقك فيما يضرك ، والحلم مقابلاً للغضب ، وهو حلمان : أشرفهما حلمك عمّن هو دونك. والصبر مقابلاً للجزع ، وهو عندهِ صبران : أعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنم في العاقبة. والوفاء مقابلاً للحسد ، وهو عنده وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه[٥٠]. ثم يوجز كلامه في الصفات المتقابلة التي ذكرها ، فيقول : ((ولعمري ما غلِطت الحكماءُ حين سمتها أركان الدين والدنيا. فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان ، فهنّ تمام كلّ دين ، وصلاح كل دنيا. وأضدادهنّ سببُ كلِّ فرقة ، وأصل كل فساد))[٥١].

ومن الفوائد التي حققها الجاحظ بتقابلاته ، تثبيت المعنى أو الصفة بذكر سببها أو علتها أو دليلها ، ومما ورد في رسالته وهو يعالج الأخلاق ، ويقوّم الصفات قوله: ((واعلم أنّ كثرة العتاب سببٌ للقطيعة ، واطّراحَه كلَّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصديق. فكن فيه بين أمرين : عاتِبْهُ فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهيِّنات ، وتجافَ له عن بعض غفلاته تسلمْ لك ناحيتُه. وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإنّ الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء ، وربَّما أورث الملالة ؛ وطول الهجران يُعقب الجفوة ، ويُحلُّ عقدة الإخاء ، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة ... واقتصد في مزاحك ؛ فإنّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرِّئ عليك أهل الدناءَة. وإنّ التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين. فإن مزحت فلا تمزحْ بالذي يسوء مُعاشريك))[٥٢]. يسير الجاحظ في خطابه وفق نهجه الإرشادي الاقناعي الحكمي مستنيراً بالتقابل التعالقي أو السببي مثلما يبدو في الجدول الآتي :

لائحة الأسباب		لائحة العواقب
الصفات أو الأخلاق المتداولة	مقابل	الصفات الناتجة عنها
كثرة العتاب	سبب في	القطيعة
اطرح العتاب واهماله كله	دليل على	عدم الاكتراث لأمر الصديق
المعاتبة الحسنة الودودة الصافية	سبب في	اشتراك الصديقين فيما ينفعهما ويضرّهما
الإغضاء عن بعض الغفلات أو الهفوات	سبب في	سلامة الصحبة واستمرارها
الإلحاح في الزيارة	سبب في	ذهاب البهاء، ووراثة الملالة
طول الهجران	سبب في	حصول الجفوة، وحل عقدة الإخاء، ومن ثمَّ الوصول إلى القطيعة الصارمة.
الإفراط في المزاح	سبب في	فقد الوقار والهيبة، وتجرؤ أهل الدناءة
التقصير في المزاح	سبب في	قبض المؤانسين والأصحاب

وهو إذ يتحدث عن هذه الصفات الأخلاقية وتباين تأثيرها، وعللها وأسبابها، يستند على التقابلات الحاصلة بين كل حال وحال، وصفةٍ وصفة، فلا وجود لشيء إلاّ ومعه ما يقابله في النفس الإنسانية؛ التي هي صورة بارعة لما هو موجود في هذا الكون الهائل المتناسق.

والجاحظ في رسالته، لم يدعْ صفة ما، أو خُلقاً إنسانياً، إلاّ وأوجز القول فيه، وكثّف المعنى في بيانه. وسيطول بنا المقام لو بحثنا جميع الخصال المتقابلة في الرسالة، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها، فقد نبّه الجاحظ القاضيَ أو مَن هو بمنزلته من الاغترار بأمور عدّة منها: ((إعلم أن الصمت في موضعه ربّما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه، وعند إصابة فرصته. وذاك صمتك عند مَن يعلم إنكّ لم تصمت عنه عيًّا ولا رهبة. فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص، وهَذَرِ مَن أطلق لسانه بغير حاجة))[٥٣]. وكرر هذه الخصال المتقابلة بأسلوبه الطريف، ومعجمه اللغوي الثر، تبعاً لقصده وغرضه في مواضع أخرى، مؤكداً ضرورة الانتباه إلى الشيء وضده في الأمر الواحد، فقال: ((اجعل صمتك أكثر من كلامك، فإنه أدلّ على حكمتك، واجعل عفوك أكثر من عقوبتك، فان ذلك أدلُّ على كرمك))[٥٤]. وقال: ((احذر الحذر كلّه أن تأنس أو تغتر بمن تعلم أن بصلاحك فساده، وبارتفاعك انحطاطه، وبسلامتك عطبه))[٥٥].

إن عناية الجاحظ بهذه الثنائيات المتقابلة تتركز على فكر عميق ، وحكمة باحثة عن أسرار الذات الإنسانية وطبعها المركب ، فهو يقول: ((إن الله جلّ ثناؤه خلق خلقه ، ثم طبعهم على حبٍّ اجترار المنافع [اجتلابها] ، ودفع المضار ، وبغض ما كان بخلاف ذلك. هذا فيهم طبع مُرَكّب ، وجبلّة مفطورة ... وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبّة والبغضاء ، فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة معهما كميل كفتي الميزان ، قل ذلك أو كثر))[٥٦]. وما يعنينا هو التقابل الفاعل في توجيه الخطاب وبنائه ، وتمثل أفضل للمعنى ، فضلاً عن إضفاء جمالية خاصة ، وانسيابية أخّاذة تثير القارئ وتدخله في رحلة البحث عن أسرار الخطاب وعوالمه.

تقابل الشواهد

الشاهد من الحجج الجاهزة ، أو غير الصناعية كما يسميها أرسطو[٥٧]. والشاهد في الخطاب العربي وسننه القولية يتمثل في الآيات القرآنية الكريمة، والحديث النبوي الشريف، والأمثال والحكم ، والأبيات الشعرية. وهي نصوص توسّع مدارك المتأمل عبر مقابلتها لمعاني ما حوله من المواقف والحالات ، وترغيبه فيما ينفعه ، وتنفيره مما يضرّه من أمور معاشه ومعاده.

ويُعد الشاهد عند الجاحظ عنصراً مرادفاً للحجة والدليل والبرهان ، ودعامة أساسية لإرساء الحقائق ، ففي بيانه نقرأ ((ومدار العلم على الشاهد والمثل ...))[٥٨]. وفي رسالة المعاش والمعاد نقف على قوله : ((فمن ضيّع شكر ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيّع وبشاهده – أي بدليله – استخف))[٥٩]. والجاحظ في خطابه يأتي بمعنى ثم يؤكده (يقابله) بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد أو الدليل على الأول والبرهان عليه. ولاشك أنه في جميع ما كتب أفاد من النص القرآني الكريم في إقرار وجود الأشياء المتقابلة في النفس الإنسانية ، وما يحققه الخطاب العزيز من رغبة أو رهبة ، أو إثارة إعجاب وبهجة ، مما نجده مثلاً في خطاب المعاش والمعاد وهو يتحدث عن الآداب والمعاملات ، بوصفها آلات تصلح إن تُستعمل في الدين والدنيا ، فعنده أن أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ((فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكلُّ أمر لم يصحَّ في معاملات الدنيا لم يصح في الدين. وإنّما الفرقُ بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة))[٦٠]. وبعد أن بسط

فكرته المرتكزة على التقابل بين أحوال الدنيا ومعاملاتها وما يناظرها من شؤون الآخرة وتدبيرها ، عمد إلى الاستشهاد بالنص القرآني المناسب لفكرته ، فقال معللاً ، ولذلك قال الله عزّ وجل : {**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**}[٦١] فالنص القرآني الموظف في سياق الرسالة أفاد نوعين من التقابل : الأول ، كما هو بائن في صلب الشاهد القرآني ومتبلور من فحوى معناه ، فمن كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرتْ أمور الدنيا ، فكذلك هو الحال إذا انتقل إلى أمور الآخرة والدين ؛ فإنما ينتقل أعمى القلب لا يبصر رشده ، ولا يرى طريق نجاته بذلك العقل. فبقدر جهله بالدنيا ، يكون جهله بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدةٌ ، وتلك غيب ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه اجهل. أما التقابل الثاني ، فيُستشف من معنى الفكرة الأول ، المقابل للمعنى في النص القرآني المستشهد به ، وهو منطلق تقابلي فعّال في صناعة الخطاب وتوهج بلاغته.

وقد برع الجاحظ في توظيف شواهده التبيينيّة المبنيّة على التقابل ؛ لإدراكه أهميتها في الإقناع والتأثير ، فهو ينتخب القضية ثم يأتي بمقابلها من الشواهد لغرض التوثيق والتوكيد ، ففي طرحه لثنائية (التقتير/والتبذير) أو (الإنقباض/والإسراف)[٦٢] ينصح بالاعتدال ، ويدعو إلى تثمير المال في مواضع الخير ، آخذاً بمذهبه الاعتزالي (التوسط). وقد آثر مقابلة ما طرحه بشاهد قرآني مبني على التقابل ، تعزيزاً لما دعا إليه ، من اجل كسب تأييد المتلقي وإقناعه بتقبل الفعل موضوع الخطاب ، ونصحه بان يتأدب بما أدب الله تعالى به عباده ، فجاء بقوله تعالى : {**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**}[٦٣]. فالشاهد يعالج قضية هامة في سلوك الإنسان وقد ارتكز على تقابل كنائي[٦٤] ، بين معنى مصرّح به ، ومعنى مكنّى عنه ، لغاية لطيفة وبليغة ، فقوله : ((ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك)) كناية عن التقتير والإمساك والإنقباض كمن لا يعطي بخلاً وشحّاً. وقوله : ((ولا تبسطها كل البسط)) كناية عن التبذير والإسراف ، وإنفاق الإنسان لكلِّ ما حصل عليه وشقى من أجله في غير موضعه.

فأسلوب التقابل حقق ماهية الاكتشاف في جماليات النص القرآني ، ولاسيما حين تجلى الفرق واضحاً بين أساليب التقابل القرآنية ، وما ورد في

كلام البشر – خطاب الجاحظ – فالنفس المتلقية تشرئب إلى فضاء القرآن الرحب بنشوة خلاّقة تمور فيها أفكار شتى ، ومشاعر غير محدودة للبحث عن أسرار كل نسق تقابلي والتقاط معانيه وجمالياته.

ومن الملفت أنّ أغلب شواهد الرسالة ، إن لم اقل جميعها ، مبنيّة على التقابل بأنواعه المختلفة ، وذلك راجع لاتساع تقنية التقابل المتّبعة في بناء مفاهيم الرسالة ودلالاتها ، فالمعاني يطلب بعضها بعضا من اجل التكامل ، وتوسيع المدارك والأفهام. فعندما يقابل الجاحظ مثلاً بين الأخلاق الحسنة/والأخلاق السيئة[٦٥]. يستثمر الشاهد القرآني المبني على التقابل بقصد صناعة الخطاب ونسجه على المنوال نفسه ، فيتمثل بقوله تعالى {**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**}[٦٦].

وفي حديثه عن (الرغبة/والرهبة)[٦٧] ، وإقامتهما على حدود العدل ، وموازين النِّصفَة ، يستعين بقوله المتقابل {**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**}[٦٨]. ومن الواضح أنّ الاستشهادات القرآنية والحديثية لها حضور قوي في خطاب الرسالة ، فهي نصوص بليغة تقابل قضايا وتعالجها ، إنها خطة تقابلية حاضرة على طول الرسالة. ويحدث هذا عن وعي موضوعي وفني عالي الدقة ، وذي بلاغة عميقة ، لاسيما وأن تجربة الرسالة هي محاولة لتجربة الإنسان الباحث عن الهداية والأخلاق المحمودة. وهي مثال لتجسيد الحيرة الإنسانية التي تسبق الوصول إلى الحقيقة الكاملة والسلوك القويم ، وهي كشف لمحنة نفسيّة مع الشهوات والمضلاّت ، وتلبيسات الشيطان وإغوائه. فمما جاء في خطاب الرسالة أن الله تعالى ((جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلذ))[٦٩] وهو خطاب لافت يرسم طريقي (الجنة/والنار) ويبيّن مسالكهما ، ولا ينسى صانع الخطاب أن يعضده بالحديث النبوي الشريف ، لما له من حضور وتأثير بحكم بنائه التقابلي ، ودقة معانيه ، وقيمة مقاصده ، فجاء بجوهرة من جواهر قوله (ص) ((حُفّت الجنة بالمكاره ، والنار بالشهوات))[٧٠]. فالطريق إلى الجنة يكلف صاحبه احتمال المكاره ، والطريق إلى النار محفوف بالشهوات والملذات. وبذلك تضمن الحديث الشريف لمعنى ثقل الطاعات/وخفة الشهوات عند البشر. وليس خافياً أن الحديث ينهض

على التقابل الضدي ، ويشكل أسلوباً فنيّاً بلاغيّاً فاعلاً في جلاء معنى الخطاب ، وتلوين حقوله الدلالية ، ومن ثمّ فتح باب التأمل أمام المتلقي المهتم بالتفاعل مع الخطاب ، الساعي للوقوف على استراتيجيته التعبيرية.

وهكذا فان تقابل الشاهد ، أو التقابل الاستشهادي كما يسميه د. محمد بازي ، يقوم على الإتيان بمعنى ، ثم تأكيده بمعنى ثان لشاهد مناسب يجري مجرى الدليل المقابل للأول ، أو الحجة على صحته[٧١]. فعندما يعرض الجاحظ – مثلاً – في رسالته لمسألة شكر النعم ، ومكافأة المحسنين يقول : ((إنّ مَن كفر نعمَ الخلق كان لنعم الله أكفر ؛ لأنّ الخلق يعطي بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة ، وثقل العطيّة على القلوب ، والله يعطي بلا كلفة. ولهذه العلة جمع بين الشكر له/والشكر لذوي النعم من خلقه))[٧٢]. ويعزز ما أراد إيصاله بالحديث النبوي الشريف ((مَن أُوْدِع عُرفاً فليشكره ، فان لم يمكنه فلينشره ، فإذا نشره فقد شكره ، وإذا كتمه فقد كفَره))[٧٣].

وبوسع التأويل التقابلي أن يمدنا بمزيد من المعاني المنبثقة من الافتراضات الدلالية التي يتأسس عليها هذا الخطاب المستفيد من بلاغة الحديث الشريف ، فالنظرة التأويلية التأملية تطرح جملة من المقابلات التي يحيل عليها سياق النص السابق وتداعياته ، ومنها :

الخالق (الناصح)	مقابل	المخلوق (المنصوح)
الجاحظ، أو من ينوب عنه (الذات الناصحة)	مقابل	الآخرين (الذوات المنصوحة)
الشاكر للنعم ، المثني عليها ، المعترف بها	مقابل	الكافر بالنعم ، الناكر لها
الله (جل علاه) يهبُ بلا كلفة	مقابل	المخلوق يهب بتكلفة واستثقال
مَن يشكر المخلوق المتفضّل	مقابل	يشكر الله
مَن لا يشكر صاحب الفضل	مقابل	لا يشكر الله
الخالق وافر العطاء فيّاض الخير	مقابل	المخلوق محدود العطاء ، ناقصُهُ
الله المهيمن العزيز ولي كل نعمة	مقابل	المخلوق كائن ضعيف يحتاج كلّ نعمة
نشر المعروف فضيلة	مقابل	كتمان المعروف خطيئة
عطاء محمود حسن النيّة، أخروي، سرمدي	مقابل	عطاء مصلحي ، دنيوي ، تزلفي ، زائل

نشر الفضل وشكره، قرب وألفة ومودّة	مقابل	نكران الفضل بُعد وكراهية
مخلوق متفضل متواضع	مقابل	مخلوق متباهي بعطائه ومتفاخر

فالمقابلات لم تقم على ثنائيات معجميّة خالصة داخل النص بل تجاوزت العدد الثنائي الظاهر على السطح – اعتماداً على مفهوم التوسع والانزياح – إلى أسلوب تقابلي نسقي طويل وممتد. وبذلك حثّت تشكلات الخطاب على تغيير وضع المتلقي وتوجيهه نحو المحامد التي ارتضاها أهل الخير والصلاح وتبصيره بأحوال نفسه ، ودفعه دفعا إلى مجاهدتها.

ومثلما وظف الجاحظ النص القرآني والحديث الشريف ، برع في تقديم (المَثَل) واستعماله بشكل منهجي فعّال في الإقناع والتأثير والتفهيم. فالمثل هو أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة ، وهو النظير ، وإنما سُمي مثلاً لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا ، يتأسى به ، ويُحذى عليه ، كأنه جُعِل مقياسا لغيره[٧٤] . والمثل في المنظور الحداثي ، استقراء بلاغي ، وحجة تقوم على المشابهة بين حالتين أو فكرتين ، ويراد استنتاج نهاية احديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها[٧٥] .

إن توظيف المثال الواضح المؤثر الذي لا ينكره عقل أو عرف من الاستراتيجيات المعتمدة في خطة الجاحظ الاقناعية والاستدلالية ، فمن الامثال التي ضربها شاهداً على تقويم الأخلاق :

مَـــــن لا يؤدّبُـــــه الجميـــــــ ـــلُ ففـــي عقوبتـــه صـــلاحُه[٧٦]

ويبدو في ترشيحه لهذا المثل أنّه ينطلق من همّ خلقيّ عميق ، مرتبط بخطاب الرسالة ووظيفتها الأساس ، إذ إن صلاح الناس مقرون بتباين شيمهم واختلاف طباعهم ، فهو يوصي بمعاملة مَن لابدّ من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، فمن أعياك استصلاحه بالحلم والأناة واللين ، فلتكن في أمره نقيض هذا الاستصلاح وهذا السلوك ، وواجهه بالشدّة والغلظة ، ليعلم أنك ندّه وقبيله ، وبذلك تستقم حاله ، ويتسق أمره ، فالمثل يتقابل مع الفكرة المطروحة ، ويتموضع بمثابة حجة جاهزة تؤدي وظيفة التدعيم ؛ كونها تكتسب قوتها من مصادقة الناس عليها وتواترها في العقل الجمعي ، فضلاً عن كونها تؤدي وظيفة إعادة التوازن بين المرسِل والمرسل إليه ، عندما يصيب عملية التخاطب خفوت في تفاعلها ، يعتقده المرسل لدى انسياقه في طرح معنى معين ((وكأنه يعترضه شكّ أو ظنّ أنّ رادّا يردّ عليه قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه ، فيعودُ راجعا إلى ما قدّمه ؛ فإما أن يؤكده ، أو يذكر سببه ، أو يزيل الشك عنه))[٧٧] . وبذلك يفيد التقابل بالمثل كونه آلية من آليات الخطاب الاقناعي البلاغي غير

المباشر في تقريب المعاني من الأفهام بضروب من الأمثلة المركبة تركيباً تقابلياً حتى تناسب التصور والفكرة التي يدافع عنها ويروم إيصالها.

الخلاصة

حاول البحث إغناء تجربة قراءة الخطاب ، وبيان بلاغته في رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ، بأدوات وإمكانيات تحليليّة تستند على التقابل الأسلوبي ، فالمعاني تُصنع بأبعاد وعلاقات متقابلة ، وتُتَلقّى وتُفهم كذلك وفق الأبعاد ذاتها ، وهو ما يؤسس لاستراتيجية تقابلية لا تبحث في معنى الخطاب عن طريق تجليات التقابل المعهود في معاجم اللغة فقط ، وإنما تقترح آليات لتوسيع مفهوم التقابل ليشمل التجاور والمحاذاة والتقريب بين المعاني عبر المواجهة بين الأفكار والذوات والصفات والشواهد ... على مستوى التصوّر والتعرف والإدراك ، وذلك من اجل فهم النص/الخطاب ، وإفهامه ، انطلاقاً من بنيته ، ومن سياقاته التي تتساند فيما بينها أثناء القراءة أو التلقي.

وقد تبيّن أنّ خطاب الرسالة ينفتح على الذهن البشري في كل اتجاه ، على الصعيد الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي والسلوكي والأدبي والأسلوبي ... ليرتقي به إلى كشف سلوك الذوات ، وتأمل مفارقات الحياة ، سواء ما يتصل بالعقيدة ومقاصد الشريعة والقيم والأخلاق ، أم ما يتعلق بالرؤى والأفكار والمواقف على مستوى السياسة والمجتمع.

لذا شكّل خطاب الرسالة أنموذجاً جماليّاً بنيويّاً ، حفّزَ العقول على استلهام دروس الحياة وعِبَرها ، والانفتاح على الآخر من دون تعصب أو إكراه أو تكلف. محاوراً رغبات المتلقي الوجدانية وإمكانياته العقلية في إطار تقابلي جميل ، يغني التجربة ، ويجعل النصَّ فضاءً منفتحاً على إمكانيات دلالية عدّة ، تفسح المجال أمام تذوّق حقيقي أثناء تحليل مكوّناته الخطابية. فالجاحظ بنى المعنى وصداه ، واعتنى بالقول وظلاله ، وكشف عن الذات عبر مراياها ، ووثّق الفكرة بالشاهد المناسب ، وكل ذلك وفق تقابلات وتوازيات دلالية حاضرة وغائبة في بنية الخطاب. وهكذا شكل التقابل بجميع أشكاله ، الآلية المحوريّة التي تصدر عنها الأفكار والمعاني ، والتي تعكس رؤية المرسل لجدلية الصراع بين الخير والشر ، والخطيئة والفضيلة ، والعقل والطبع.

الهوامش

- رسالة المعاش والمعاد : هي الرسالة الثانية في كتاب رسائل الجاحظ ، للجاحظ ، المؤلف من سبع عشرة رسالة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة. والرسالة موجّهة لقاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دواد ، قاضي بغداد بعد والده أحمد بين سنتي (٢٣٣هـ-٢٣٧هـ) . وقد توثقت صلة الجاحظ بأبيه وبه. ينظر : رسائل الجاحظ ، رسالة المعاش والمعاد : ٨٩/١.

(١) ينظر : نظرية التأويل التقابلي ، د. محمد بازي : ٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩.

(٢) ينظر : نفسه : ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣.

(٣) مفاهيم موسعة لنظرية شعرية ، اللغة – الموسيقى – الحركة : ٨٧/١.

(٤) ينظر : تحليل الخطاب الشعري ، استراتيجية التناص ، لاسيما الفصول: الخامس ، والسابع ، والثامن.

(٥) ينظر : التقابل الجمالي في النص القرآني : ٩.

(٦) ينظر : استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٣٤ وما بعدها ، ٤٤٤ وما بعدها.

(٧) ينظر : تحليل الخطاب السردي ، د. عبد الملك مرتاض : ٢٧٧.

(٨) رسائل الجاحظ ، رسالة المعاش والمعاد : ٩٧/١.

(٩) نفسه : ٩٧/١.

(١٠) منهاج البغاء : ٢٧٨.

(١١) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩٨/١.

(١٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف : ١٧٦.

(١٣) الحيوان ، الجاحظ : ٤٨٨/٣.

(١٤) نفسه : ١١٤/٣.

(١٥) نفسه : ٢٢٢/٥.

(١٦) نفسه : ٧١/٥.

(١٧) نفسه : ٧٨/٥.

(١٨) ينظر : رسائل الجاحظ ، الجاحظ : ٩١/١.

(١٩) نفسه : ١٧٦/١.

(٢٠) نفسه : ٢٣١/١.

(٢١) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩١/١.

(٢٢) نفسه : ٩٢/١.

(٢٣) نفسه : ٩٢/١.

(٢٤) ينظر : العمدة : ٢٥١/١.

(٢٥) أنوار الربيع ، المدني : ٧١/٣.

(٢٦) ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ : ١٣٨/١-١٣٩.

(٢٧) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩٣/١.

(٢٨) الذات والآخر ، د. محمد شوقي الزين : ٩.

(٢٩) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩٦/١-٩٧.

(٣٠) ينظر : نفسه : ٩٧/١.

(٣١) نفسه : ١٠٦/١.

(٣٢) نفسه : ١٠٧/١.

(٣٣) نفسه : ١٠٧/١.

(٣٤) نفسه : ١٠٩/١.

(٣٥) نفسه : ١١٥/١.

(٣٦) نفسه : ١١٧/١.

(٣٧) نفسه : ١١٧/١.

(٣٨) نفسه : ١٢٦/١.

(٣٩) نفسه : ١٢٢/١.

(٤٠) نفسه : ١٢٣/١.

(٤١) نفسه : ١٢٧/١.

(٤٢) نفسه : ١٢٨/١.

(٤٣) نفسه : ١٢٩/١.

(٤٤) ينظر على سبيل المثال كتاب : النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله محمد الغذامي : الفصلين الثالث والرابع.

(٤٥) شرح المشكل في شعر المتنبي ، ابن سيدة ، تحقيق : مصطفى السقا ، وحامد عبد

المجيد : ٢١٧.

(٤٦) ينظر : تقابلات النص وبلاغة الخطاب ، محمد بازي : ١٦٠.

(٤٧) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١١٠/١.

(٤٨) نفسه : ١١١/١.

(٤٩) نفسه : ١٢٣/١-١٢٤.

(٥٠) نفسه : ١٢٥/١.

(٥١) نفسه : ١٢٥/١-١٢٦.

(٥٢) نفسه : ١٢٧/١-١٢٨.

(٥٣) نفسه : ١١٣/١.

(٥٤) نفسه : ١٣١/١.

(٥٥) نفسه : ١٣٢/١.

(٥٦) نفسه : ١٠٢/١.

(٥٧) ينظر : الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه ، هاجر مدقن : ٦٣.

(٥٨) البيان والتبيين : ٢٧١/١.

(٥٩) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩٤/١.

(٦٠) نفسه : ٩٩/١.

(٦١) سورة الإسراء : ٧٢.

(٦٢) ينظر : رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١١٢/١-١١٣.

(٦٣) سورة الإسراء : ٢٩.

(٦٤) أفرد د. محمد بازي في نظريته نوعاً من التقابل سماه (التقابل في الكناية) ومثل له بشواهد من القرآن الكريم ، والشعر العربي القديم. ينظر : نظرية التأويل التقابلي : ١٥٦.

(٦٥) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١٠١/١.

(٦٦) سورة المؤمنون : ١٠٢-١٠٣.

(٦٧) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١٠٤/١.

(٦٨) سورة الزلزال : ٧-٨.

(٦٩) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١٠٥/١.

(٧٠) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١٠٥/١. وينظر الحديث في سنن أبي داود ، السجستاني ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، الحديث رقم ٤٧٤٤ : ٦٤٩/٢.

(٧١) ينظر : نظرية التأويل التقابلي : ٤٠٧.

(٧٢) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ٩٥/١.

(٧٣) نفسه : ٩٥/١. وينظر الحديث في سنن أبي داود ، الحديث رقم ٤٨١٣ : ٦٧١/٢.

(٧٤) ينظر : العمدة ، ابن رشيق : ٢٧٧/١ ، ٢٨٠.

(٧٥) ينظر : في بلاغة الخطاب الاقناعي ، محمد العمري : ٨٢.

(٧٦) رسائل الجاحظ ، المعاش والمعاد : ١٠٩/١.

(٧٧) الصناعتين ، أبو هلال العسكري : ٤٠٧.

المصادر

القرآن الكريم

(١) استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م.

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع ، لعلي صدر الدين بن معصوم المدني ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٣) البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٤) تحليل الخطاب السردي ، الدكتور عبد الملك مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر العاصمة ، الجزائر ، ١٩٩٥م.

(٥) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، الدكتور محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٥م.

(٦) تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي) ، الدكتور محمد بازي ، الدار العربية للعلوم (ناشرون) ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٧) التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية وأسلوبية) ،

الدكتور حسين جمعة ، منشورات دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥م.

(٨) الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

(٩) الخطاب الحجاجي (أنواعه وخصائصه) ، هاجر مدقّن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

(١٠) الذات والآخر (تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع) ، محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

(١١) رسائل الجاحظ ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (د.ت).

(١٢) شرح المُشكل من شعر المتنبي ، لابن سيدة ، تحقيق : مصطفى السقا وحامد عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ، حققه وفصّله وعلق عليه: محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٣م.

(١٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة عشرة، (د.ت).

(١٥) في بلاغة الخطاب الاقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية) ، الدكتور محمد العمري، افريقيا الشرق ، المغرب – لبنان ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢م.

(١٦) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧١م.

(١٧) مفاهيم موسّعة لنظرية شعرية (اللغة – الموسيقى – الحركة) ، الدكتور محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م.

(١٨) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق : محمد الحبيب بلخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٦م.

(١٩) نظرية التأويل التقابلي (مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب) ، الدكتور محمد بازي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة ، الجزائر ، منشورات ضفاف ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

(٢٠) النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية) ، الدكتور عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المملكة المغربية ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١م.

Abstract

Mankind is complex creature , teeming with contradiction which is infinity , visual, non-visual ,parallel, aware and non-aware, at the level of physiological, mental, rhetorical, and behavioral environment -----AL-Jahdh has realized this concealed truth of humanity, as also realized – the universe is space which is full with the apparent and vanished contradiction , he has worked through his persuasive dissertation on preaching to dismantle the contradiction of actions , behaviors ,visions and posing that in rhetorical way ,palatable to the listeners to get them understand or influence , so contradiction is one of the eloquent elements that ensure this dissertation (judgment day and sustenance) , persuasive force and moral interest ,so generally ,human mind cannot understand , comprehend and paraphrase without thought of contradiction or different dialogue criteria .That is what this study will explore , on condition ,thought of contradiction is automatic reading and elaborate analysis ,aims to illustrate and state strategies of thesis speech to reach to obvious and simple comprehension .